الاستشراقِ الألـمانيِّ
بين الخصوصية والعالمية

أ. بن علي مَسْرُوَة[1]

يكاد يجمع الباحثون المهتمون بالدراسات الاستشراقية على تفرد الاستشراق الألماني عن غيره ببعض الميزات والخصائص، والتي يعود بعضها إلى طبيعة الفرد الألماني، وبعضها الآخر إلى ظروف تاريخية وجغرافية وكذلك سياسية. ويمكن أن نجمل تلك الميزات فيما يلي:

أ- كان ظهوره متأخرا جدا: وهذا مما لا خلاف فيه، لكونه حقيقة تاريخية؛ فالاستشراق في ألمانيا بمعناه العلمي قد بدأ متأخرا جدا، ".. . ولم يعرف أيّ نشاط يذكر للاستشراق الألماني إلا في القرن الثامن عشر"[2].

ب- عدم الخضوع لغايات سياسية أو استعمارية أو دينية:

وهي الميزة التي يركز عليها كثير من الباحثين[3]، حتى كادت أن تصبح مسلمة من فرط ما تذكر، وحجة القائلين بها الوحيدة هي أن ألمانيا لم يسبق لها وأن استعمرت بلدا عربيا أو إسلاميا، فاستشراقها إذًا "لم يخضع لغايات سياسية أو استعمارية أو دينية كالاستشراق في بلدان أوربية أخرى... فألمانيا لم يتح لها أن تستعمر البلاد العربية أو الإسلامية، ولم تهتم بنشر الدين المسيحي في الشرق، لذلك لم تؤثر هذه الأهداف في دراسات المستشرقين الألمان، وظلت محافظة على الأغلب على التجرد غالبا والروح العلمية.

وإذا ظهر في بعض الدراسات الاستشراقية الألمانية بعض الانحراف

---

1 قسم اللغة العربية جامعة جيلالي ليابس / سيدي بلعباس

2- محمد فتح الله الزيادي، مدارس الاستشراق، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد: 3، 1986م، ص. 286.

3- من ذلك ما ورد في إحدى المجلات الألمانية: « die historische Besonderheit Deutschlands,... das anders als die anderen westlichen Staaten keine koloniale Geschichte im arabischen Raum gehabt habe ». MEMRI « The Middle East Media Research ..Institute, Deutschland, Jacques Chirac und die arabische Welt, 21. Juli 2004.. S. 3 ينظر كذلك: مقابلة مع فولفديتريش فيشر، ضمن: هاشم الأيوبي، أبحاث عربية في الكتاب التكريمي للمستشرق الألماني فولفديتريش فيشر، ط. 1. 1994م، ص. 369.

أو الخطأ، فهذا أمر لا يمكن تعميمه في الدراسات كلها"[1].

هذا ما يذهب إليه كثير من الباحثين، إلا أن الوقائع التاريخية تثبت عكس ذلك؛ فقد سعى الألمان إلى الحصول على موطئ قدم في البلاد العربية الإسلامية من خلال ".. . الرحلة التي قام بها عام 1211م أحد أكبر رجال الدين واسمه فيلبراند فون أولدنبورغ على رأس بعثة دبلوماسية من الإمبراطور الألماني أوتو الرابع إلى ملك القدس الأرمني ليو، بخصوص الوراثة على عرش القدس"[2]. فهذا من أظهر الأدلة على وجود أطماع استعمارية وتوسعية لدى الألمان في البلاد العربية، كما أن هذه الرحلة نفسها لم تكن بريئة، فإلى جانب الهدف الاستعماري الظاهر، قام رسول الإمبراطور الألماني "بوصف مدن سوريا وفلسطين، وكل الأماكن المقدسة بالتفصيل، كما اهتم أيضا بالشؤون العسكرية في الشرق"[3].

سجل الألمان حضورا في الشرق إبان الحروب الصليبية أيضا، حيث استجاب الملك كونراد لنداء القديس برنردوس، الذي وبخه على فتوره"... فخجل الملك وأقسم بأن يلبس ثوب الصليبيين مناديا بالحروب المقدسة، وكذلك أشراف المملكة"[4].

و إذا كنا لا نستغرب موقف الملك كونراد، فإننا نستغرب نية الملك فريدريك الثاني وعزمه على خوض غمار الحروب الصليبية رغم ما كان يبديه من حب للعرب وعلومهم، فقد "... أبحر الإمبراطور فعلا من بزيديزي قاصدا بلاد الشام، ولكنه عاد بعد أيام مدعيا المرض، مما جعل البابا يعتبر المرض تمارضا، فأصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور في أواخر سبتمبر سنة 1227م"[5].

1- صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط. 1، 1978، ج. 1، ص. 7.

2- المرجع نفسه، ص. 80.

3- المنجد، المستشرقون الألمان، ص. 80 بتصرف.

4- سيد علي الحريري، كتاب الأخبار السنية في الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط. 3، 1406/ 1985م، ص. 95. ينظر كذلك: ص. 98 وما بعدها.

5- سعيد عبد الفتاح عاشور، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، 1977م، ص. 118. وقد حاول فريدريك الثاني إنقاذ عرشه بغزو بيت المقدس. فما أشبه اليوم بالأمس، حين أصبحت دماء المسلمين والعرب جزءا من حملات زعماء الغرب الانتخابية !

ثم تكرر الأمر كذلك في القرن التاسع عشر، حيث سعت ألمانيا القيصرية إلى محاولة بسط نفوذها في منطقة الشرق الأوسط، ومسابقة بريطانيا وفرنسا في ذلك، حينما أرسلت"... في عام 1881م وفدا عسكريا إلى الآستانة، كانت مهمته تحديث الجيش العثماني. وفي عام 1888م حصلت شركة ألمانية على امتياز لخط سكة الحديد من أزمير إلى أنقرة، وقد علق أحد المراقبين قائلا: لقد نسف الرأسمال الألماني والشركات الألمانية المصالح البريطانية والفرنسية، وخلق ما يمكن تسميته الإمبراطورية الاقتصادية الألمانية في الشرق الأوسط"[1].

كما كانت لألمانيا علاقة بالحركة الصهيونية العالمية، وتجلى ذلك خلال زيارة القيصر ويلهلم الثاني للقسطنطينية عام 1898م في طريقه إلى القدس للحج، فقد "سنحت الفرصة للدولة الألمانية خلال هذه الزيارة لتكثف نشاطها في شؤون البلدان العربية. فقد استقبل القيصر رئيس المؤتمر الصهيوني تيودور هرتسل، واقترح الأخير على القيصر تأسيس جمعية يهودية سماها جمعية أراضي سوريا وفلسطين تديرها المنظمة الصهيونية، واقترح هرتسل أن توضع هذه الجمعية تحت الحماية الألمانية. ولكن القيصر الألماني رفض هذا الاقتراح لأنه أراد من جهة أن يتجنب التدخل في الشؤون الداخلية للخلافة العثمانية، ولأنه كان من جهة أخرى يخشى أن يقود مثل هذا العمل إلى إزعاج أو استفزاز القوى الكبرى، أي بريطانيا وفرنسا"[2].

ويمكن إرجاع سبب إخفاق الألمان في السيطرة على أي قطر عربي إلى سببين اثنين، هما:

- **الوضع الداخلي العربي:** فقد كانت بريطانيا وفرنسا المسيطرتين فعليًّا على الوطن العربي، وأمام هذا الواقع حاولت ألمانيا استمالة القوميين العرب للثروة ضد بريطانيا، إلا أنهم رفضوا التعاون معها، فحاولت استغلال الحركة الإسلامية إبان الحرب العالمية الأولى للقضاء

1- سامي معلم، صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط. 2، حزيران/يونيو 1986م، ص. 47.

2- سامي معلم، صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية، ص. 48. قامت ألمانيا فيما بعد بدعم اليهود وشجعتهم على الهجرة إلى فلسطين، كما دعمت حركات انفصالية ضد بريطانيا، خاصة في العراق. ينظر: المرجع نفسه، صص. 51- 52. وينظر لمزيد من التوسع في هذا الموضوع: عبد الوهاب المسيري، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، دار الشروق، القاهرة، ط. 3، 1421/ 2001م.

- على المصالح البريطانية في الهند ومصر[1].

- **هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية:** فقد حرمت بسبب هذه الهزيمة من كل الامتيازات في الوطن العربي، حيث اقتسمت كل من بريطانيا وفرنسا أجزاءه[2].

وعلى صعيد آخر، بدأ المستشرقون الألمان يحضون بالاهتمام الرسمي في بلادهم، حيث بدؤوا يحصلون على مراكز سياسية هامة، وهو ما يدل على نوع من تسييس الاستشراق، أو على الأقل الاستفادة منه سياسيا، فقد أصبح كارل هاينريش بيكر مثلا "مستشارا شخصيا وسكرتيرا للدولة، ومن ثم وزيرا منذ العام 1919م... "[3]، وكذلك الأمر بالنسبة لمارتين هارتمان، الذي عمل مترجما مستشارا في القنصلية الألمانية في بيروت بين عامي 1876م-1887م[4].

أما فيما يخص براءة الاستشراق الألماني من البعد التنصيري، فإن التاريخ قد أثبت عكس ذلك أيضا؛ فحينما لم يلق الاستشراق في بدايته دعما حكوميا، احتضنته الحركة التنصيرية التي كانت في أوجها، فقد"... كانت الاهتمامات التبشيرية أيضا هي التي دعت سكرتير زوج الملكة (أنّا) فلهلم لودوف... لإرسال مُدَرّسَيْن مسيحيَّيْن إلى ألمانيا من أجل تدريس اللغة العربية، سالومونيجري (1665م- 1729م)، وكارلوس ديديشي المتوفى 1734م"[5]. كما أن البلاد الألمانية لم تخل من جمعيات تنصيرية تحاول بسط نفوذ الكنيسة على حساب الإسلام، حيث"... ثبت وبصورة قطعية أن للألمان جمعيات تبشيرية، وأنهم يقومون بدعم حركة التبشير ماديا ومعنويا، وأنَّ أحد مؤتمرات التبشير المهمة -وهو ما سمي بالمؤتمر الاستعماري- قد عقد في ألمانيا، وقد جاء في إحدى الكلمات التي ألقيت فيه: والمبشرون هم الذين اختصوا وحدهم بالاهتمام بأمر الإسلام والبحث في شؤون مستعمراتنا الألمانية إلى هذه الأيام الأخيرة... وأنا لا أرى أن تظل الحالة على ما هي عليه، بل من رأيي أن تنتقل أزمة السياسة الإسلامية منذ الآن إلى يد

1- ينظر: سامي معلم، صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية، صص. 49- 50.

2- ينظر: سامي معلم، المرجع نفسه، ص. 50.

3- يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق. الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين. تعريب. عمر لطفي العالم. دار المدار الإسلامي. بيروت. ط. 2، حزيران/ يونيو/ الصيف 2001 إفرنجي، ص. 337.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص. 281.

5- يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص. 99.

الحكومة في مستعمراتنا. وختم هذا المتحدث كلامه بقوله: يجب علينا بالرغم من العناية برعاية الإسلام أن نهتم بمقاومة انتشاره في مستعمراتنا على قدر الإمكان. وجاء في أحد قرارات هذا المؤتمر: "إنَّ ارتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم، ولذلك فإن المؤتمر الاستعماري ينصح الحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة "[1].

أما المستشرقون أنفسهم، فتراجمهم الشخصية تنبئ عن مدى تعلقهم بمثل هذه الجمعيات التنصيرية والعنصرية، من ذلك التكوين الذي تلقاه دافيد هاينريش موللر، الذي"... تلقى ثقافة يهودية سلفية، لكنه بتأثير من الجالية اليهودية الغالية، ذهب إلى برسلاو لينضم إلى الحلقة الدراسية الدينية اليهودية، التي تأسست في العام 1854م..."[2]. والأمر لم يختلف كذلك بالنسبة لياكوب بارث، الذي"... درّس منذ 1874م في الحلقة الدراسية التلمودية لليهودية المتشددة في برلين... "[3]. وأما إرنست ترامب فبعد دراسته بكلية اللاهوت، عمل لصالح "الجمعية الكنسية للتبشير Church Mission Society، حيث اتجه إلى الهند للقيام بتأليف معاجم وكتب نحو في لغاتها الحية، كما عمل قسيسا أيضا"[4].

ج- لم يكن متصفا بروح العدائية على الأغلب: وهذه ميزة يذكرها أيضا بعض الباحثين، مع اعترافهم بوجود بعض الحالات النادرة التي التبس فيها بعض المستشرقين الألمان ببعض الصفات الخارجة عن نطاق البحث العلمي النزيه؛ حيث يرى المنجد أنه"لم تكن دراسات المستشرقين الألمان عن العرب والإسلام والحضارة الإسلامية العربية متصفة على الأغلب بروح عدائية. نعم وُجد بعض المستشرقين الذين أتوا بآراء لا توافق العرب والمسلمين، أو بآراء خاطئة تماما، كبعض آراء نولدكه (توفي سنة 1930م) عن الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، أو آراء فوللرز Vollers (1880م) عن القرآن الكريم وتهذيبه. لكن الآراء معدودة، فالاستشراق الألماني لم يعرف مستشرقين جعلوا ديدنهم عداء

1- محمد فتح الله الزيادي، مدارس الاستشراق، صص. 284- 285.
2- يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص. 267.
3- المرجع نفسه، ص. 253.
4- ينظر: المنجد، المستشرقون، صص. 73- 74. والأمثلة على ذلك كثيرة جدا، وهي معلومة، ولا يسعنا في هذا المقام أن نذكرها كلها.

العرب والإسلام، وتعمدوا الدس والتشويه في دراساتهم، بل بالعكس، رافقت دراساتهم روح إعجاب وتقدير وحب وإنصاف"[1].

ولم ينفرد المنجد بهذا الرأي، فقد شاطره فيه باحثون آخرون، منهم عبد الهادي التازي، الذي قال في سياق حديثه عن المدرسة التشيكية للاستشراق: "ومن الملاحظ أن المدرسة التشيكية الاستشراقية تأثرت على العموم بالمدرسة الألمانية في موضوعيتها وإيجابيتها ونزاهتها.."[2].

لقد عرفت المدرسة الاستشراقية الألمانية عددا كبيرا من المستشرقين الذين أظهروا جانبا كبيرا من الموضوعية والإنصاف أثناء معالجتهم لبعض القضايا الخاصة بالحضارة العربية الإسلامية، وبالإسلام، وباللغة العربية والشعر الجاهلي. فقد ابتعدوا – جلهم- عن الطعن والتزموا العلمية والإنصاف. ومن أبرزهم:

- أنا ماري شيمل (1922م- 2003م): التي كرست حياتها لدراسة العلوم العربية والإسلامية،"... وهي من دعاة الحوار بين الأديان، وفلسفتها أن الحوار يهدف إلى:

1- خدمة الحرية والتفاهم.

2- يزيل البغضاء والحقد والتعصب.

تنظر إلى الدين الإسلامي على أنه دين عدل وسماحة وأخلاق وحوار وتسامح"[3]. وقد تميزت هذه الباحثة عن أقرانها ببعض الصفات التي منها:

الفهم الصحيح للإسلام جوهرا ومضمونا، وحبها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ودفاعها عن المرأة في الإسلام[4]، إضافة إلى دفاعها المستميت عن الإسلام، حيث تقول: "إن من المحزن اليوم حقا أن لا يميز كثيرون في الغرب بين الإسلام وبين ما يلصق زورا وبهتانا بالإسلام، أو ما يقترف من جرائم باسم الإسلام.. . "[5].

1- المرجع نفسه، صص. 7- 8.

2- عبد الهادي التازي، عميد الاستشراق التشيكي إيفان هربك وعطاؤه للمكتبة الإسلامية والعربية والإفريقية، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد: 89، ص. 9.

3- حسن بن محمد سفر، الموضوعية في الاستشراق الألماني: المستشرقة أنا ماري شيمل (1922م- 2003م) نموذجا، ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد 2، العدد الخامس، 1425/ 2005م، ص. 110.

4- ينظر، المرجع نفسه، ص. 111 وما بعدها.

5- مراد فلفريد هوفمان، الإسلام كبديل، تقديم: أنا ماري شيمل، مجلة النور الكويتية، مؤسسة بافاريا، مكتبة العبيكان، الرياض، ط. 2، 1418/ 1997م، مقدمة شيمل، ص. 17.

- زيغريد هونكه: صاحبة المصنف الشهير شمس الله تسطع على الغرب، الذي كان تأليفها له كنوع من رد الجميل للعرب الذين فتحوا العالم بعقولهم وعلومهم[1]. فقد أنصفت المؤلفة من خلاله العرب وحضارتهم، كما عاتبت أبناء جنسها الذين تنكروا – وما زالوا- لهذه الحضارة العربية الإسلامية، فأوربا"... تدين للعرب وللحضارة العربية، وأن الدَّيْن الذي في عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جدا، وكان يجب على أوربا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد... إن العرب ظلوا ثمانية قرون طوالا يشعون على العالم علما وفنا وأدبا وحضارة، كما أخذوا بيد أوربا وأخرجوها من الظلمات إلى النور، ونشروا لواء المدنية أنى ذهبوا في أقاصي البلاد ودانيها، سواء في آسيا أو إفريقيا أو أوربا، ثم تنكر أوربا على العرب الاعتراف بهذا الفضل"[2].

وإضافة إلى هذين الاسمين الكبيرين، نجد من بين المنصفين الألمان:

- يوهان رايسكه، الذي اتهم بالزندقة لموقفه الإيجابي من الإسلام[3].

- مراد هوفمان، الذي أسلم وألف كتبا في الدفاع عن الإسلام، منها: الإسلام كبديل*، والإسلام ديانة في صعود**.

- إرنست زبكنبيرجر Ernst Sickenberger (1895م- 1831م)، الذي أحب الشرق واتخذه موطنا، وكذلك مواطنه Max Mayerhof، الذي عشق الشرق، وأمضى فيه أكثر من ثلاثين سنة من حياته[4].

- يوليوس روسكا (1867م- 1949م)، الذي اعترف للعرب بفضل السبق العلمي في الرياضيات والفلك والكيمياء والطب، وغيرها من فنون العلم الأخرى[1].

1- ينظر: زيغريد هونكه، شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فؤاد حسنين علي. مكتبة رحاب. الجزائر. 1406/1986م، مقدمة المؤلفة.

2- المرجع نفسه، مقدمة المؤلفة.

3- ينظر: شوقي أبو خليل، الحوار دائما وحوار مع مستشرق. دار الفكر المعاصر. بيروت. دار الفكر. دمشق. الإصدار الثالث. 1416/ 1996م، ص. 127.

* نشر هذا الكتاب في طبعته الثانية عن مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا، مكتبة العبيكان، الرياض، 1418-1997م، بمقدمة للمستشرقة شيمل.

** نشر في طبعته العربية بعنوان: الإسلام في الألفية الثالثة، ديانة في صعود، تعريب: عادل المعلم ويس إبراهيم، مكتبة الشروق.

4- جيزلا كيرشر، الألمان وتاريخ الصيدلة العربية، ضمن: المنجد، المستشرقون الألمان تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، صص. 140-141.

- أوتو شبيس Otto Spies، فقد حرص في كتابه الآثار الثقافية الشرقية في الحضارة الغربية. مراجع ومواد للمدرس"... على أن يكون كتابه منصفا للحضارة العربية بالحق، فتحدث عن آثارنا في علوم الغرب وآدابه وعمارته وفنونه حديث العالم المتمكن، وبسط تراثنا الحضاري عرضا بسيطا بديعا، فيه إنصاف سليم، وتحرٍّ للحق جدير بمقامه في البحث والعلم"[2].

- فولفديتريش فيشر، الذي كانت تربطه صلات الصداقة والاحترام مع كثير من العرب، فقد بنى صداقات وطيدة في كثير من الأقطار العربية حتى مع الجامعات فيما بين الرباط وحلب، حيث ظل اسمه علما على الصداقة القائمة بين العرب والألمان[3].

د- التفاني في العمل، والصبر، والمثابرة: وتعد هذه الميزة من أبرز سمات الدراسات الاستشراقية الألمانية؛ فقد "اتصف المستشرقون الألمان بالتفاني في العمل والصبر والمثابرة، فمنهم من فقد بصره مثل وستنفلد، ومنهم من أفنى عمره باحثا ومنقبا ودارسا، حتى أن يوهان راسكه سمي بشهيد الأدب العربي"[4]. وكان كثير منهم لا تشغله مشاغل الحياة اليومية عن الدراسات العربية، رغم شح الوقت وضيقه، فقد تمكن وستنفلد مثلا رغم التزاماته المهنية الكثيرة، من إنجاز أعمال ذات قيمة علمية عظيمة، رغم"... أنه إلى جانب واجباته الوظيفية، كان يدير المكتبة العامة التي كانت تستبقيه حتى الساعة الثالثة أو الرابعة من بعد الظهر في أثناء الفصول الدراسية، لكنه كان نشيطا وعمليا إلى درجة تدعو للإعجاب..."[5].

مثل الوقت بالنسبة إلى هؤلاء المستشرقين عاملا مهما وثمينا، ومن فرط تقديسهم له، حاول بعضهم تحاشي بعض الدروس الواجبة عليه لطلابه، فقط من أجل استغلاله في دراسة العربية وعلومها، حيث إن فيلهلم ألورد"... لم يكن يشجع الطلاب الذين كانوا يسجلون أنفسهم

1- ينظر: محمد يحيى الهاشمي، يوليوس روسكا، ضمن: المنجد، المستشرقون الألمان تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، ص. 148.

2- حسين مؤنس، الكتب عرض ونقد، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد: 8، مدريد، 1959م-1960م. ص. 377.

3- ينظر: هاشم الأيوبي، مع فولفديتريش فيشر في رحلة ربع قرن، ضمن: هاشم الأيوبي، أبحاث عربية في الكتاب التكريمي للمستشرق الألماني فولفديتريش فيشر، صص. 8- 9. والقائمة ما تزال طويلة، ولن نستطيع استيفاءها في هذه العجالة، وحسبنا منها هذه الأسماء التي ذاع صيتها.

4- محمد فتح الله الزيادي، مدارس الاستشراق، ص. 285.

5- يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص. 199.

للدراسة لديه، فقد كان يود أن يحتفظ بكل وقته دون أي عائق للأدب العربي، وخاصة للشعراء العرب"[1].

إضافة إلى هتين الصفتين، تميز الألمان بصفة أخرى قد تكون الأهم في المجال العلمي، وهي صفة الصرامة العلمية، التي أخذ أوغست فيشر منها بحظ وافر؛ إذ إنه كان صارما أشد ما يكون إذا ما تعلق الأمر بمسألة علمية، فلم يكن"... يَقبَل صحة إفادة ما، إلا بعد التثبت منها علميا، ولذا كان... نافدا لا يرحم لكل من أهمل الأصول اللغوية والنحوية في التراجم، سواء من العربية أو التركية إلى اللغات الغربية. ولم يعرف التسامح مع من كان يقوم ببناء القصور العلمية في الهواء دون أن يقيم أساسها النحوي على صورة لا غبار عليها... "[2].

لقد أضحت هذه السمة منهجا متبعا لدى كثير من الألمان، فلم يكونوا يترددون في نقد ما يرونه غير مناسب أو مخالف لما ينبغي أن يكون عليه،"... ومن المقدمين في باب النقد المجرد فلايشر الذي صحح طبعات نفح الطيب، ومعجم البلدان، والفهرست، والكامل للمبرد، وكذلك ريتر الذي نقد وصحح عشرات من الطبعات التي صدرت في أوربة والبلاد العربية"[3].

هـ- التضحية في سبيل العربية: لم يوجد – فيما أعلم- من المستشرقين من بلغ مبلغ الألمان في التضحية في سبيل العربية، فقد أضحت تضحية الألمان في سبيلها مثالا يحتذى، ليس من المستشرقين فقط، وإنما من العرب كذلك.

لم يكن الاستشراق الألماني ليصل إلى ما وصل إليه من دقة واحترافية وعلمية لولا تلك التضحية التي قدمها أربابه رغم الصعاب كلها، والمشاكل والمضايقات التي لاقوها نظير تلك التضحية، فها هو ذا يوهان رايسكه قد استغنى عن احتياجات معيشية ضرورية، فقط من أجل اقتناء الكتب العربية[4]، التي تمكن بفضلها من تعلم العربية.

لم يكن تصرفه هذا بدعا لدى الألمان، فقد حذا حذوه خلفُه فريدريش روكرت، الذي لم يحظ بفرصة دراسة العربية دراسة نظامية (أكاديمية)، فـ"... أكبَّ لسنوات عديدة على نسخ ما جاءه من الكتب

1- المنجد، المستشرقون الألمان، ص. 101.
2- المرجع نفسه، ص. 131. ينظر كذلك: ص. 132 وما بعدها.
3- المنجد، المستشرقون الألمان، ص. 12.
4- ينظر: يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص. 110.

والمخطوطات الشرقية، لعدم قدرته على شرائها بسبب فقره، ورغم ذلك فقد تمكن من ابتياع كتاب مقامات الحريري باهض الثمن، رغم فقره المدقع[1].

وقد كان لأوغست فيشر أيضا نصيب من هذه التضحية، حيث إنه "... لما توفي خليفته في معهد لايبزيج –البروفسور إريش براونليش Bräunlich-... قام شيخنا الجليل بالتدريس على الرغم من تقدم سنه... وكان قد حل مكان الأستاذ براونليش في زمان الحرب[2]، ثم منعته الحكومة عن التدريس... ولكنه داوم على التدريس الخاص، مع أنه قد فاق الثمانين من عمره، حيث كتب يقول في سنة 1948م: لا يزال عندي بضعة طلاب أقوم بتدريسهم رحمة بهم، إذ لا يوجد معلم للعربية..."[3].

لم تقتصر تضحية الألمان على الجانب المعنوي فقط، وإنما تعدته لتشمل الجانب المادي كذلك، "... فقد كان بعضهم ينشر النصوص العربية ويطبعها على نفقته رغم ما يعانيه من زهد بني جنسه فيها. "[4]، إلا أن حبهم للعربية وعلومها جعلهم يقدمون على ذلك رغم الإفلاس الذي كان يتهددهم.

و- فهرسة المخطوطات: يعد الاهتمام بالمخطوطات وفهرستها اختصاصا ألمانِـيًّا بامتياز، فبالرغم من أن الألمان كانوا حديثي عهد بالدراسات العربية مقارنة بغيرهم من الأوربيين، إلا أنهم قد بذلوا جهودا عظيمة في الحصول على نفائس التراث العربي، خاصة من المخطوطات النادرة.

ولم تتوقف جهودهم عند هذا الحد، وإنما سعوا إلى القيام بجهد آخر ذي قيمة منهجية كبيرة، ألا وهو إعداد فهارس لتلك المخطوطات، في محاولة منهم لتسهيل الوصول إليها. ولعل أول محاولة في هذا المجال هي التي قام بها "كريستمان J. Christmann (- 1613م) حيث وضع فهرسا لمخطوطات عربية كان قد اقتناها نبيل ألماني"[5].

1- ينظر: المنجد، المستشرقون الألمان، صص. 64- 66.
2- أي الحرب العالمية الثانية.
3- المنجد، المرجع نفسه، ص. 136.
4- محمد فتح الله الزيادي، مدارس الاستشراق، ص. 286.
5- المنجد، المستشرقون الألمان، ص. 10 بتصرف.

وبالتزامن مع أعمال الفهرسة تلك، تواصلت الجهود للحصول على مزيد من المخطوطات والنقوش العربية، وتجشم عناء السفر من أجل ذلك، حيث سافر رايسكه في شتاء سنة 1735م إلى مدينة درسدن، قاصدا الناشر سيبيش للحصول على تحقيقات المخطوطات الباريزية الثانية لكتاب ابن عربشاه[1].

لم يكن الحصول على المخطوطات والنقوش العربية بالأمر الهين، فقد كان في كثير من الأحيان أمرا بالغ الخطورة، ومن ذلك ما وقع للمستشرق إدوارد غلازر Edward Glaser، الذي قصد اليمن طلبا لبعض النقوش العربية، إلا "... أنه لم يستطع مغادرة المدينة[2] بسبب الثورات في جميع أرجاء البلاد. وعند ذلك وجد لنفسه مخرجا، وهو أنه علم بعض البدو فن طبع الألواح المنقوشة على نوع معين من الورق، بطرقها عليه بحيث تنشأ صورة مطابقة تماما للأصل. وهكذا انتشر البدو الذين دربهم على ذلك في ضواحي المدينة القريبة والنائية بحثا عن النقوش، وأحضروا من أماكن لم يصلها رحالة بعد مواد كثيرة غنية..."[3].

ثم تتابعت بعد ذلك رحلات الألمان نحو البلاد العربية من أجل اقتناء مزيد من المخطوطات، فتم"إيفاد هاينريش بيترمان (1801م-1876م) سنة 1852م لشراء مخطوطات شرقية، أما جوهان جوتفريد فيتر شتاين(1815م- 1905م)، فقد كان أكثر نجاحا، حيث استغل منصبه كقنصل في دمشق فأعد أربع مجموعات من المخطوطات، أرسلت منها مجموعتان إلى برلين، والثالثة إلى لايبزيغ، أما الرابعة فكانت من نصيب مكتبة توبنجن"[4].

وقد أسهم إدوارد ساخاو أيضا في هذا الجهد العلمي الخطير، حيث قام برحلة إلى الشرق للغرض نفسه، وكان من حصاد رحلته تلك"... مجموعة مخطوطات سورية آلت إلى مكتبة برلين، قام بفهرستها في العام 1899م، مع الموجودات المخطوطية السورية القديمة، وذلك إلى جانب المصادر اللغوية والنقوش"[5]، إلا أن أعمال الفهرسة هذه لم تتميز

1- ينظر: يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص. 110.
2- أي مدينة صنعاء.
3- المنجد، المرجع السابق نفسه، ص. 95.
4- يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص. 194 بتصرف.
5- يوهان فوك، المرجع نفسه، ص. 246.

إلى حد الآن بالشمولية، إلى أن جاء فيلهلم ألورد الذي قام بأعظم عمل فهرسة في البلاد الألمانية إلى حد الآن، وتتمثل عظمة هذا العمل في شموليته، وفي المدة التي استغرقها إنجازه، "فمع تعاظم أعداد المخطوطات العربية في مكتبة برلين الوطنية، عُهد إلى ألورد مسؤولية فهرستها، الذي قام -إلى جانب عملية الفهرسة- بتقديم وصف عن كل مخطوط، وبيان دقيق عن محتواه، وهو العمل الذي استغرق منه عشرين سنة"[1].

ثم تتابعت بعد ذلك أعمال الفهرسة تترى، حيث قام فلهلم سبيتا (1853م- 1883م) بفهرسة المخطوطات العربية في مكتبة خيديال بالقاهرة[2]. ووضع زيبولد الجزء الأول من فهرس مخطوطات جامعة توبنجن، ووضع فايسفايلر Weisweiler الجزء الثاني منه، كما وضع أومير Aumer (- 1922م) فهرس مخطوطات مكتبة جامعة ميونخ. وأما فلايشر(- 1888م) فوضع فهرسا للمخطوطات الشرقية في مكتبة درسدن الوطنية، الذي شمل 454 مخطوطا. كما كان لفير حظ في أعمال الفهرسة، حيث وضع فهرس مخطوطات مكتبة جمعية المستشرقين الألمان. أما بروكلمان فقد أصاب من هذه الأعمال سهما هو أيضا، من خلال فهرسه لمخطوطات مكتبة الدولة في برسلاو، إضافة إلى فهرس بيرنباخ Berenbach للمخطوطات العربية في مكتبة جامعة هايدلبرج[3].

وما يلاحظ في هذه الأعمال أن جلها قد شمل مكتبات جامعية، وهو ما يوضح بجلاء النهج الأكاديمي المتقدم الذي سلكته الدراسات الشرقية في ألمانيا، من خلال جمع أكبر عدد ممكن من المخطوطات التي تعد من أهم مصادر تلك الدراسات، إن لم تكن أهمها على الإطلاق.

وفي هذا المجال نفسه نرى أنّ الألمان "... لم يكتفوا بوضع مبادئ عامة لكيفية تحقيق المخطوطة، وإنما عمدوا إلى تقديم دراسة لما يحققون من مخطوطات تختلف باختلاف نوعية المخطوطة والمادة التي تقدمها"[4].

1- يوهان فوك، المرجع السابق نفسه، ص. 195 بتصرف.

2- ينظر: يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص. 251.

3- المنجد، المستشرقون الألمان، ص. 10.

4- محمد عوني عبد الرؤوف، من صور الاستشراق الألماني، صفحة مشرقة لتحقيق المخطوطة العربية، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 25، مدريد 1991م- 1992م. ص. 27.

وما تزال فهرسة المخطوطة العربية تحظى باهتمام بالغ في البلاد الجرمانية، من خلال بعض المقالات المهتمة بالموضوع، إضافة إلى محاولات جديدة لفهرسة المخطوطة العربية؛ من ذلك المقال الذي نشره أو. ريشر حول المخطوطات العربية في آيا صوفيا [1]،

O. Rescher, Über arabische Handschriften der Aja Sofia

وكذلك بحث الأستاذة ريناته فيرزيه المخطوطات الشرقية في مكتبة بيرن الوطنية[2].

نرى مما سبق أن الميزة الأساسية للاستشراق الألماني تكمن في الرصيد العلمي الهائل الذي خلَّفه، فقد استطاع المستشرقون الألمان أن يجدوا لهم مكانة ضمن الدراسات الاستشراقية الأوربية، رغم التأخر النسبي لانطلاقتهم، وهو ما يثبت سبقهم المعرفي، وميولهم منقطع النظير إلى كل ما له علاقة بالتراث العربي الإسلامي. وقد تمكنوا كذلك من فرض منطقهم على الدراسات الاستشراقية السائدة آنئذٍ؛ فقد تفوقوا على أقرانهم الأوربيين في الدقة المعرفية، والانضباط، والجود والتضحية، وهذا ما من شأنه أن يعفو عن الأخطاء التي قام بها بعض المستشرقين الألمان، والتي لا يمكن بأي حال أن نُعمِّمَها.

قائمة المراجع:

الأيوبي، هاشم إسماعيل: أبحاث عربية في الكتاب التكريمي للمستشرق الألماني فولفديتريش فيشر، ط. 1. 1994م.

التازي، عبد الهادي: عميد الاستشراق التشيكي إيفان هربك وعطاؤه للمكتبة الإسلامية والعربية والإفريقية، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد: 89.

الحريري، سيد علي: كتاب الأخبار السنية في الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط. 3، 1406/ 1985م.

الزيادي، محمد فتح الله: مدارس الاستشراق، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد: 3، 1986م. سفر، حسن بن محمد: الموضوعية في الاستشراق الألماني: المستشرقة أنا ماري شيمل (1922م- 2003م) نموذجا، ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد 2، العدد الخامس، 1425/2005م.

شوقي أبو خليل: الحوار دائما وحوار مع مستشرق. دار الفكر المعاصر. بيروت. دار الفكر. دمشق. الإصدار الثالث. 1416/ 1996م.

1 ينظر: -Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, Begründet von: G. Bühler und andere, XXVI. Band, Wien, 1912. Alfred Hölder .

2 ينظر: -Renate Würseh, Die orientalischen Handschriften der Berger Bibliothek Bern, 2007, Herrassowitz Verlag, Wiesbaden.

ظافر يوسف: الاستشراق الألماني إلى أين؟ مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 68، السنة السابعة عشرة، آب- أغسطس 1997م/ ربيع الآخر 1418.
عاشور، سعيد عبد الفتاح: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، 1977م.
عبد الرؤوف، محمد عوني: من صور الاستشراق الألماني، صفحة مشرقة لتحقيق المخطوطة العربية، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 25، مدريد 1991م- 1992م.
فوك، يوهان: تاريخ حركة الاستشراق. الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين. تعريب. عمر لطفي العالم. دار المدار الإسلامي. بيروت. ط. 2، حزيران/ يونيو/ الصيف 2001 إفرنجي.
مؤنس، حسين: الكتب عرض ونقد، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد: 8، مدريد، 1959م- 1960م.
مـــجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ج. 3، مج. 1، آذار سنة 1921م، الموافق 22 جمادى الآخرة سنة 1339.
الـــمسيري، عبد الوهاب: الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، دار الشروق، القاهرة، ط. 3، 1421/ 2001م.
معلم، سامي: صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط. 2، حزيران/يونيو 1986م.
الـــمنجد، صلاح الدين: المستشرقون الألمان تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط. 1، 1978، ج. 1. هوفمان، مراد فلفريد:
- الإسلام كبديل، تقديم: أنا ماري شيمل، مجلة النور الكويتية، مؤسسة بافاريا، مكتبة العبيكان، الرياض، ط. 2، 1418/ 1997م.
- الإسلام في الألفية الثالثة، ديانة في صعود، تعريب: عادل المعلّم ويس إبراهيم، مكتبة الشروق. د. س. د. ط.
هونكه، زيغريد: شمس الله تسطع على الغرب. ترجمة فؤاد حسنين علي. مكتبة رحاب. الجزائر. 1406/1986م.

الـــمراجع الأجنبية:

MEMRI « The Middle East Media Research Institute, Deutschland, Jacques Chirac und die arabische Welt, 21. Juli 2004 .
Renate Würseh, Die orientalischen Handschriften der Berger Bibliothek Bern, 2007, Herrassowitz Verlag, Wiesbaden .
Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, Begründet von: G. Bühler und andere, XXVI. Band, Wien, 1912. Alfred Hölder .